مؤتمر مكة المكرمة الثامن

[الخطاب الإسلامي وإشكاليات العصر]

٥-٧ ذي الحجة/١٤٢٨هـ

١٥-١٧ ديسمبر/ ٢٠٠٧م

بحث بعنوان :

[مشكلات تواجه الخطاب الإسلامي]

((القصور الذاتي))

إعداد :

أ.د. عبد الكريم محمد بكار

بسم الله الرحمن الرحيم

(ملخص البحث)

اخترت الحديث عن القصور الذاتي للخطاب الإسلامي بوصفه المشكلة الكبرى التي يعاني منها ذلك الخطاب ، ولأن اهتمامنا بالحديث عن الأمور التي في إمكاننا إصلاحها وتطويرها أولى من الحديث في مسائل لا نستطيع عمل أي شيء تجاهها ، ومن المؤسف أن طبيعة الموضوع تفرض أن يكون طابع ما كتبته سلبياً وباعثاً على الضيق ، لكن لا حيلة لي في ذلك .

هذا تلخيص موجز لأهم النقاط الواردة في بحثي المقدم إلى مؤتمركم الموقر :

١. ما دام الخطاب الإسلامي قائماً على الاجتهاد وعلى فهم منقوص للواقع فإن من المتوقع أن لا يستغني في يوم من الأيام عن التجديد والنقد والمراجعة ، وهذا ليس خاصاً بالخطاب الإسلامي بل إنه من شأن أي خطاب .

٢. أرى أن الخطاب الإسلامي هو الفكر الإسلامي مجسداً في رسالة وهذه الرسالة قد تكون كتاباً أو خطبة أو مقالة ، وحتى يكون الخطاب إسلامياً فينبغي أن يلتزم بالمبادئ الأساسية للشريعة ، وأن لا يصطدم بإجماع ولا بنفي قطعي لا يقبل التأويل كما ينبغي أن يتناغم مع المقاصد العامة للشريعة الإسلامية .

٣. إذا دققنا النظر فإننا سنجد أن لدينا خطابات إسلامية ، وليس خطاباً ، فهناك الخطاب السلفي والخطاب التبليغي والصوفي والخطاب الذي يصوغه طلاب العلم الشرعي والذي يغلب عليه الطابع الفقهي ، كما أن هناك الخطاب الحركي الإصلاحي ، وهذا يعني أن الانتقادات التي توجه إلى الخطاب الإسلامي على أنه خطاب واحد ليست دقيقة ، لأنها تصدق على بعض الخطابات الإسلامية دون بعض ، ويمكن كذلك أن نقول : أنه ليس هناك أي خطاب إسلامي بريء من كل عيب .

٤. المشكلات والتحديات التي تواجهها الخطابات الإسلامية نوعان : نوع يعد من طبيعة المجال الفكري وطبيعة مخاطبة الناس ، ومن مكابدات

الخصوم والمنافسين ، ونوع مصدره (القصور الذاتي) لدى صانعي الخطاب الإسلامي ، وذلك القصور يكون في الأفكار والمفاهيم التي نستخدمها في إدراك الواقع ، وفي الأساليب والأدوات التي نستخدمها في علاجه وإصلاحه ، وأنا أعتقد أن التحديات التي يسببها القصور الذاتي لا تقل عن ٨٠٪ من مجمل التحديات ، ولهذا فإنه هو الميدان الرحب الذي ينبغي أن تبذل فيه معظم الجهود ، وتعمل فيه أفضل العقول .

٥. قسمت القصور الذاتي إلى قسمين : قصور على مستوى الشكل وقصور على مستوى المضمون ، وأقصد بالشكل هنا كل ما يتصل .

بفهم صانع الخطاب للواقع وحاجات الناس المختلفة ، وما يقتضيه ذلك الفهم من استخدام الأساليب وأدوات محددة ، بالإضافة إلى تركيز صانع الخطاب على موضوعات بعينها وفق رؤيته للأولويات ، أما المضمون فأعني به هنا ، مجموعة الرؤى والمفاهيم والأفكار والتطلعات ، التي يرى صانع الخطاب أن عليه أن يوصلها للناس عبر أداة من أدوات الخطاب وبأسلوب من أساليبه ، مما أظنه جزءاً من القصور الذاتي على مستوى الشكل لدى بعض الخطابات الإسلامية الآتي :

أ – ضعف إدراك ملامح الذائقة الثقافية الجديدة ، والذائقة الثقافية هي الحاسة التي يتلقى الناس بها الخطاب ، ويحكمون عليه من خلالها ومعرفتها ومراعاتها تحتاجان إلى متابعة مستمرة وعلم وملاحظة لأنها في تجدد دائم ، الذائقة الثقافية الجديدة تبدي نوعاً من النفور من الفهم الحرفي للنصوص ، ومن الإفراط في ذكر الميزات والسلبيات والتقسيمات والفوائد ، كما تبدي نفوراً من الألفاظ الرنانة والبراعة اللفظية التي لا يصاحبها بلاغة في المعنى والمضمون وطرح منطقي ومنهجي ، والذائقة الجديدة تحبذ التأكيد على توسيع مدلول الكرامة الإنسانية ، وتعلي من قيم الاستقلال وتحمل المسؤولية والمبادرة والقدرة على الإنجاز والمقاومة ، وتنفر من الخطاب المتشائم والمشحون بالشكوى والتذمر ، وكثير من هذه المعاني لا تتم مراعاته من العديد من الخطابات الإسلامية المعاصرة .

ب – كثير من أدوات الخطاب الإسلامي يفتقر إلى الجاذبية والمتعة بسبب شحنة بالاحتجاج والعتاب : احتجاج على الأعداء وعلى الشعوب والحكام والزملاء، وهذا يجعل التفاعل معه ضعيفاً ، وهذا واضح جداً في العديد من المجلات الإسلامية، وقد

اقترحت أن يتم عوضاً عن ذلك إغناء الخطاب بالشرح والتعليل والتعليم وطرح الأسئلة الكبرى المتعلقة بالتخلف الحضاري والتقدم والمدنية أو محاولة إيجاد أجوبة عليها جيدة ومصنعة بالإضافة إلى تعزيز المسحة الإنسانية والأخلاقية والحضارية في كل أشكال الخطاب الإسلامي .

ج – لم يستطع معظم الخطابات الإسلامية مواكبة التغيرات الجديدة التي طرأت على الساحة الثقافية ، فقد كان طلاب العلم الشرعي والكتاب والمفكرون الإسلاميون هم مثقفي الأمة ، وقد تغير ذلك على ما نرى ونسمع ، وكان المجال غير متاح لمعظم الناس أن يعبروا عن آرائهم ، وقد كسر الانترنت هذه القاعدة وكذلك البرامج الحوارية والمباشرة في الفضائيات ونتيجة لكل هذا فقد صار إقناع أصعب من ذي قبل لأن الناس في أوضاع الاضمحلال العلمي يتعاملون مع الآراء الخاصة على أنها حقائق مسلمة ، وحين تشيع المعرفة ، ويكثر صانعوها يميل الناس إلى التشكيك في الحقائق الثابتة ، أضف إلى هذا أن صانع الخطاب الإسلامي – ولاسيما من يحمل هماً إصلاحياً شاملاً – يجد نفسه مضطراً للكتابة والتحدث في موضوعات تربوية واقتصادية وسياسية واجتماعية كثيرة لم يطلع عليها الاطلاع الكافي ، أو أن الاطلاع الممتاز عليها ليس ميسوراً لكل صانعي الخطاب ، هذه التطورات مجتمعة جعلت إقناع الناس لا يتم عن طريق الترغيب والترهيب وبيان الفوائد والأضرار – كما كان عليه الأمر في السابق – وإنما صار يحتاج إلى فهم تقنيات الخطاب التي تحفز المخاطبين على قبول الفوض والنظريات والآداب والأحكام التي تقدم إليهم ، وتلك التقنيات تشكل في الحقيقة بيئة متكاملة من المؤثرات التي تتصل بشخص صانع الخطاب وظروفه ومكانه ووضعية المتلقين له المشكل أن المعاهد والكليات التي تعد الدعاة لم تنتبه إلى هذا – مع وجود استثناءات قليلة – فلم تغير في مناهج إعداد الدعاة وبرامج تدريبهم بما يتناسب مع الوضعية الجديدة ، وهذا جعل بعض الخطابات الإسلامية يبدو وكأنه يتحدث على موجة غير الموجة التي فتح عليها مخاطبوه.

فنحن في زمان الشكل والصورة والغلاف وطريقة التقديم ، ولا بد لمن يريد الوصول إلى قلوب النساء وعقولهم من مراعاة كل ذلك .

قصور الخطاب الإسلامي على مستوى المضمون :

يشتمل مضمون الخطاب الإسلامي على مبادئ وقيم وأصول وكليات ثابتة لا تتغير ويشتمل كذلك على أفكار ورؤى وطروحات وحلول ، وهذه تشكل جوهر الفكر الإسلامي وهي وإن كانت تظل مؤطرة بالأصول والثوابت إلا أنها أقرب إلى أن تكون أدوات للفهم والتحليل وتشخيص الواقع واستشراف المستقبل ، كما هو الشأن فيما لدينا من أفكار في تطوير التعليم والنظر الإدارية والارتقاء بالأسرة المسلمة ، وهذه لن تكتمل أبداً ، وستظل ذات طابع اجتهادي ، وقابلة للنقد والمراجعة ، وما سأقوله هنا عن قصور الخطاب هو أيضاً اجتهادي وقابل للمجادلة .

وسأشير إشارات موجزة إلى بعض جوانب قصور الخطاب الإسلامي في الحروف الصغيرة الآتية :

١. الواقع ذو طبيعة زئبقية ، وهو قابل لقراءات عديدة ، وهناك أسلوبان لقراءته : أسلوب التمثل الذهني والاعتماد على الانطباعات الشخصية والمعلومات الناجزة ، وأسلوب يقوم على البحث العلمي والمسح الفني واستطلاع الآراء ومطالعة ما كتبه الآخرون عن الموضوع الذي يريد صانع الخطاب معالجته ، والطريقة الثانية شاقة ، وتحتاج إلى تأهيل وصبر ووقت ، ولهذا فإن من البديهي أن نندفع إلى الأسلوب الأول ، مما يترتب عليه فهم مبستر للواقع ولحاجات الناس ، مما يستدعي قصوراً في فهم طبيعة التحديات التي تواجهها الأمة ، وقصوراً في نوعية المعالجة وأسلوب الخطاب ، وفي إمكاننا أن نقول أيضاً : إن فهم الواقع عن طريق التخيل قد أدى إلى تفريق كلمة صانعي الخطاب الإسلامي بسبب افتقارهم للأرضية المشتركة التي تقوم على معطيات خارجية محايدة ، ولك أن تلمس ذلك واضحاً في تقويم صانعي الخطاب للواقع العام وواقع الصحوة، وفي تشجيعهم لنوعية المشكلات التي تعاني منها الأمة، وكنت قد دعوت في غير مقالة إلى أن تهتم الجماعات والهيئات الإسلامية بإنشاء مراكز بحوث صغيرة وبنوك للمعلومات ولو محدودة من أجل المساعدة على سلوك الطريق الصحيح لفهم الواقع ، ولعل الوعي الذي يتشكل اليوم يدفع إلى ذلك .

٢. العلاقة بين المجتمع والدولة دائماً هي علاقة معقدة ، والبشرية مازالت حائرة في النظم والآليات والوسائل التي يمكن أن تساعد على تنظيم تلك العلاقة على نحو يكون فيه العدل والقسط ، ويكون فيه الخير للجميع ، وهذا في الحقيقة موضوع طويل وذو ذيول ، ومما ألاحظه على بعض الخطابات الإسلامية في الشأن السياسي أمران جوهريان :

أ – الظن بأن الوصول على السلطة سيحل كل المشكلات ويخفف كل الآمال وفق ما يراه صانع الخطاب ، وهذا ليس بالشيء السديد ، لأن الأمم الناهضة لا تعلق توازنها على دور حكوماتها، وإنما على ما يمكن أن يقوم به الأفراد والأسر والمجتمعات، وهذا التعلق الشديد بالوصول إلى المناصب ومواقع اتخاذ القرار أدى إلى ضمور الوعي العام بالدور الجوهري الذي يمكن أن يقوم به الفرد والمسلم في تنمية الحياة ونشر الخير والحيلولة دون انتشار الفساد ، كما أدى إلى تباطؤ الناس في إقامة الهيئات والمؤسسات والروابط الخيرية والإغاثية واللاربحية التي تجعل الحشود من الناس تتحول فعلاً إلى مجتمعات قوية وفاعلة .

إن مشكلات الجماعات الإسلامية لا تظهر وهي في المعارضة ، وإنما تظهر عند الوصول إلى السلطة ، وهذا لا يعني أبداً حرمان كل ذي كفاءة من أن يكون له طموح مشروع لأن يكون له موقع في السلطة والمسؤولية .

ب – مطالبة الحكومات بالمزيد من التدخل لحماية القيم الإسلامية ومطالبتها بتقديم المزيد من الخدمات ، وهذا في نظري لا يصب لا في مصلحة الحكومات ولا في مصلحة المجتمعات لأن المزيد من الخدمات سيعني طلب المزيد من السلطة مما يؤدي إلى تضخم أجهزة الحكومات وهذا لا يساعد على صلاحها ، وإنما على فسادها ، ولا يصب في مصلحة المجتمعات ، لأن المجتمع الفاضل هو الذي يقوم بشؤونه مع أقل حاجة إلى الحكومة ، ودور الحكومة يجب أن لا يكون تولي التنفيذ ، وإنما التنظيم والإشراف والرقابة إلى جانب توفير الحماية والقيام بما يعجز الناس عنه من المشروعات الكبرى وذات الصبغة الحساسة ، ولنا في تجربة المجتمعات الشيوعية والاشتراكية عبرة بالغة .

٣. يتطلب نجاح الخطاب الإسلامي معرفة صانعيه بطبائع الأشياء وسنن الله – تعالى– في الخلق إلى جانب العلاقات السببية والتداعيات المنطقية التي

تحدث بسبب كل ذلك ، ويؤسفني القول : إن معظم الخطابات الإسلامية لا تملك في كل ما ذكرناه ما يكفي لصياغة خطاب واقعي ومؤثر وعملي، وذلك بسبب افتقار المكتبة الإسلامية والثقافة السائدة في ساحة الصحوة إلى الكتب والبحوث التي تعالج هذه المسائل على نحو جيد ، وسأسوق بعض الأمثلة لتوضيح ذلك .

أ – المسلمون بكل عواطفهم ومشاعرهم يحلمون بانضواء العالم الإسلامي تحت راية واحدة على أساس عقيدة الأمة ومبادئها السامية ، ويلح صانعوا الخطاب الإسلامي على ذلك إلحاحاً شديداً، وهم على حق في ذلك ، لكن الذي آخذه على كثير منهم أنهم يطالبون بنمط صعب في الوحدة ، وهو الوحدة السياسية ، وذلك من خلال المطالبة بإعادة الخلافة وتشكيل وحدة كاملة تحت أي نظام سياسي ، وهذا شيء يشبه المستحيل اليوم حيث انتهى عصر الإمبراطوريات ، وجاء دور الأحلاف والمنظمات والمجالس الإقليمية ، وأعتقد أن علينا أن نصرف النظر عن الوحدة السياسية، ونسعى إلى إقامة اتحادات إسلامية إقليمية على شاكلة مجلس التعاون الخليجي ، هذا أولاً ، وعلينا ثانياً أن نقيم أطراً كثيرة وقوية من أجل تنسيق جهود الأمة في الدعوة والتنمية ، وأعتقد أنه ينبغي أن يكون لدينا اتحادات حقيقية وفاعلة للدعاة والمعلمين والمفتين والأطباء والمهندسين والصناعيين والطلاب والتجار .. الخ ، وعلينا أن نبعث الروح في القائم منها الآن ، فهذا ينجينا بإذن الله – تعالى – من تضييع الممكن في طلب المستحيل .

ب – يتصور بعض صانعي الخطاب الإسلامي أن الله – تعالى – شرع الزكاة للقضاء على الفقر ، ويتصور آخرون منهم أن تنشيط الأعمال الخيرية يغني عن إصلاح النظم السياسية والاجتماعية والاقتصادية ، وهذا التصور في غير محله ، فنظام الزكاة يساعد على تخفيف الفقر ومواساة الناس ، وهو لا يعمل من أجل تحقيق هذه الغاية على نحو جيد إلا إذا عملت النظم الأخرى مثل القرض الحسن والوقف الإسلامي ، وإلا إذا تم وضع خطط تنموية جيدة وتم العمل على مكافحة الفساد المالي والإداري ، والأعمال الخيرية عامة تعد بمثابة كرة ثانية على صعيد العدالة الاجتماعية ومن أجل تلافي قصور بعض النظم الاجتماعية والاقتصادية لكنها لا تحل مشكلات مجتمع يعاني من سوء الإدارة أو سوء التنمية .

ج – عمل كثير من صانعي الخطاب الإسلامي على استغلال العديد من النماذج الرفيعة من رجالات هذه الأمة في القرون الأولى وقاموا بتعميمها على تلك القرون من خلال قولهم : هكذا كان السلف ، وهذا ما كان يرفضه السلف ، وهذا ما كان يفعله السلف ، ومع اعتقادنا بخيرية القرون الأولى إلا أنه ليس من الإنصاف التصوير بأن بضعة آلاف من السابقين يمثلون مئات الملايين منهم ، وإن الذين يخاطبون بهذا هم في الغالب عامة الناس ، ويثير صانع الخطاب على نحو خفي في نفوس المخاطبين المقارنة بين أحوالهم وأحوال من يحد منهم عن تقواهم وورعهم وبطولاتهم ، إن في السابقين خاصة وعامة وفينا خاصة وعامة ، والمطلوب أن نحدث الناس عن الجميع حتى لا نجعل الناس يحتقرون أنفسهم ، أو يظنون أن التدين الحق بعيد المنال .

٤. يركز الخطاب الإسلامي في شأن المرأة على حجابها وسترها وحشمتها وعلى شروط عملها خارج المنزل ، وعلى مسألة اختلاط الرجال بالنساء ، وهذه القضايا كلها مهمة ، لكن يقع الخلل حين يشغلنا هذا عن صياغة خطاب يساعد على تنمية المرأة وإعدادها للحياة ، أنا أعتقد أن نسبة ٢٠٪ من الخطاب الإسلامي كافية للحديث في هذه المسائل أما الثمانون في المئة فينبغي أن يتركز على إعداد المرأة لتكون داعية ممتازة وزوجة ناجحة وأماً مربية ، ومشاركة فاعلة في العمل الخيري والخدمة الاجتماعية، وحينئذ فسيكون حجابها صدى لإيمانها وقناعاتها وتربيتها والأمر آخذ في التحسن حقيقة لكن العديد من صانعي الخطاب الإسلامي يخافون من تنمية المرأة كما لو أنها عفريت سينطلق من القمقم ، قد همشنا المرأة فخسرناها وكسبتها الأسواق ، ومن المؤسف أن المرأة المسلمة تستهلك من الثياب وأدوات الزينة والحلي أضعاف ما تستهلكه المرأة الأوربية بسبب ما تعاني من الفراغ الفكري والروحي ، وقد آن لهذه الوضعية أن تتغير .

والحمد لله رب العالمين

د.عبدالكريم بكار

بسم الله الرحمن الرحيم

مشكلات تواجه الخطاب الإسلامي

(القصور الذاتي)

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين وبعد :

فقد كثر الحديث اليوم عن تجديد الخطاب الإسلامي والكشف عن وجوه قصوره ، وذلك بسبب تنامي الوعي الذاتي لدى صانعي الخطاب الإسلامي ، وبسبب الأزمات التي يمر بها معظم الخطابات المعاصرة الإسلامية وغير الإسلامية ، ولا شك أن الخطاب الإسلامي يحتاج إلى إعادة النظر والى النقد بصورة مستمرة وذلك لأننا مادمنا نختلف في فهم الواقع ومتطلباته ، ومادام الواقع نفسه في حالة من التغير المستمر ، فإنه ليس أمامنا إلا أن نطور خطابنا في ضوء اكتشافنا للواقع ولحاجات الناس ، وفي ضوء اكتشافنا للمشكلات التي يعاني منها الخطاب الذي نصطنعه .

وسوف أركز في بحثي هذا على ما يمكن أن أسميه (القصور الذاتي) للخطاب الإسلامي ، لكن على قبل ذلك أن أشرح بعض المصطلحات والمفاهيم التي تمهد للحديث عن ذلك القصور ، والله المستعان .

١. ما الخطاب الإسلامي ؟

يمكن القول : إن الخطاب الإسلامي هو الفكر الإسلامي مجسداً في رسالة ، وهذه الرسالة قد تكون كتاباً أو خطبة أو مقالة أو قصة أو مسرحية ، إنه في الجملة كل ما يستخدم بوصفه وسيلة للتواصل والتفاهم ، ويكون الخطاب إسلامياً إذا أدرك صانعه روح الشريعة الغراء ومقاصدها العامة ، وأدرك المبادئ الأساسية والنصوص القطعية التي لا يصح في أي حال تجاهلها أو الخروج عليها ، وهذا مطلوب بصورة عامة ، وإلا فإنه ما من كاتب أو متحدث يستطيع أن يعصم نفسه من الوقوع في بعض الأخطاء والهفوات ، وتلك الأخطاء حين تكون نادرة أو في مسائل فرعية ، فإنها لا تحول الخطاب إلى خطاب غير إسلامي ، وينبغي في هذا السياق أن نقول بتجزئة الخطاب ، حيث إن جماعة ما قد يكون

خطابها التربوي إسلامياً ، لكن خطابها السياسي أو الاقتصادي ، قد لا يكون نقياً إلى درجة تسمح لنا بوصفه بأنه خطاب إسلامي .

٢. خطاب أم خطابات ؟

أعتقد أن المهم هنا القول : إنه ليس لدينا خطاب إسلامي واحد ، وإنما خطابات متعددة ، حيث إن كثيراً من أولئك الذين يوجهون سهام النقد إلى الخطاب الإسلامي، يتركون لدى السامع والقارئ انطباعاً قوياً بأنه ليس في الساحة الإسلامية سوى خطاب واحد ، وذلك الخطاب هو الذي يتسم بالنقائض والمعائب التي يشيرون إليها ، ولهذا فإنهم ينسبون للخطاب الإسلامي عدداً من الانتقادات المتضادة والمتناقضة، فهو خطاب متشدد ومتساهل ، ووعظي ومغرق في المثالية ، وخطاب عجول ومغرق في التفاصيل ، وقادر على تجييش الناس ومتجاهل لهمومهم ، ومعقد وسطحي ، إن هذه الأوصاف لا يمكن أن تجتمع في أي خطاب لدى أي شخص أو أي جماعة إسلامية ، كما أنه لا يستطيع أي خطاب سواء أكان إسلامياً أو غير إسلامي أن يخلو من بعضها ، أما حين نقول : إن لدينا خطاباً سلفياً يركز على العقيدة والتمسك بالأصول ، ولدينا خطاباً صوفياً يركز على المشاعر والعواطف والتربية الذاتية ، وخطاباً حركياً يحاول تغيير الواقع ونقده ، وخطاباً تبليغياً يستهدف إيصال بعض الحقائق والمفاهيم والمعاني الإسلامية إلى أوسع شريحة ممكنة من الناس ، فإننا سنكون أقرب إلى الواقع وسنجد فعلاً أن ما يقال من نقود ومآخذ قد ينطبق على خطاب بعينه على نحو جيد .

وهذا الذي ذكرناه هو الشئ الطبيعي الذي لا يصح غيره ، حيث أن القاعدة العامة في مسائل الاجتهاد والاتفاق والاختلاف هي أنك كلما اتجهت صوب الأصول والكليات والقواعد الكبرى وجدت الإجماع ، أو ما يشبه الإجماع ، أما حين تتجه إلى المسائل الصغرى والى الأمور الفرعية والتطبيقات والأساليب فإنك ستجد أنه لا مناص من الكثير من الاختلاف والتباين حتى على صعيد الأسرة الواحدة والمجموعة الصغيرة ، وهذا من سنن الله – تعلى – في الخلق ، وأود أن أشير في هذا السياق إلى أننا حين نكون في حالة توصيف للصور الصحيحة والمثلى للخطاب الإسلامي ، فإن علينا أن نتحدث حديثاً واحداً وكأنه ليس أمامنا سوى خطاب واحد ، ولكن حين ننقد ، ونقوم فإن علينا أن نجتنب الألفاظ والتعبيرات التي تفيد التعميم لأن واقع

الخطاب الإسلامي فعلاً متنوع ومتباين ، إذا لم ندرك تعددية الخطاب الإسلامي ، فإنه سيكون من العسير علينا القيام بتجديده وتطويره ، لأن كثيراً من كلامنا سيكون آنذاك قابلاً لأن يوصف بأنه خطأ ، وأن يوصف بأنه صواب .

٣. المشكلات التي يواجهها الناس في كل زمان ومكان تنقسم إلى قسمين: مشكلات تفد من طبيعة المجالات التي يعملون فيها، ومن مكايدات الآخرين واعتداءاتهم ، ومشكلات يتسببها القصور الذاتي والأخطاء الداخلية .. وقد مضت سنة الله – تعالى – في الخلق أن يكون معظم ما يعاني منه الناس شيئاً مما عملته أيديهم وشيئاً مما اقترفوه من آثام وأخطاء وهذا واضح جداً في قول الله – تعالى – {أولما أصابتكم مصيبة قد أصبتم مثليها قلتم أنى هذا قل هو من عند أنفسكم إن الله على كل شئ قدير} سورة آل عمران آية ١٦٥، ولهذا فإني اخترت أن أتحدث إليكم عن (القصور الذاتي) بوصفه المصدر الأعظم أهمية بالنسبة إلى مصادر معاناة الخطاب الإسلامي ، وإن شئتم (الخطابات الإسلامية) فما المقصود بالقصور الذاتي ؟ .

المقصود بالقصور الذاتي : عدم امتلاك صانع الخطاب الإسلامي ما يكفي من الأفكار والمفاهيم والأساليب والأدوات لبلوغ أهدافه على صعيد التأثير في الناس وتحسين أوضاعهم في المجالات المختلفة ، وبما أنه مسألة تقدير (الكفاية) عسير التحديد ، فإن لنا أن ننظر إليها من أفق الإمكانات المتاحة لصانع الخطاب ، ومن أفق ملامح الخطابات التي يصوغها المنافسون للخطاب الإسلامي .

إن العالم يشهد تغييرات واسعة للغاية بسبب التجديدات التقنية المتلاحقة ، حيث إن من الملاحظ أن طموحات الناس ونظرتهم للحياة والرفاهية والحاجة والضرورة وكل العلاقات الاجتماعية آخذة في التطور الحثيث ، وهذا سوف ينعكس بالضرورة على رؤاهم للمستقبل وتفسيرهم للماضي ، ويحتاج من يريد التأثير فيهم اليوم أن يدرك ذلك ، ويحاول تطوير خطابه بما يتلاءم مع أفهامهم وتطلعاتهم وليس هذا بالأمر اليسير، إنه يحتاج إلى دراية واطلاع وتحليل والإعلاميين وكتاب النصوص (الدرامية) وغيرهم على تلمس مفاتيح عقول الجماهير وقلوبهم ، وإن مواصفات كل ذلك آخذة في الارتقاء والتعقيد ، حيث إن الساحة مزدحمة بالخطابات المتنوعة ، المحلية منها والعالمية ، ومع زيادة الوعي وزيادة درجة التحضر يتطور نظر الناس للمعلومات

والأخبار والأفكار ، فما ينظر إليه كثير من الناس اليوم على أنه رأي من الآراء أو وجهة شخصية ، كان ينظر إليه في الماضي على أنه حقيقة مطلقة لا تقبل أي مراجعة.

إن الكمال لا منتهي له ، ونحن حين نتحدث عن كمال غير ملموس ، ويصعب توصيفه بدقة ، فإن هذا يعني أننا سنظل نوجه النقد للخطاب الإسلامي – ومثله غيره من الخطابات – كما أننا سنظل نختلف في مسألة (تقييمه) وبيان وجوه التقدم التي يحرزها ، وأرجو أن نتقبل كل ذلك على أنه شيء طبيعي، ولا مندوحة منه ، المهم في كل نقد هو الإخلاص والصدق ومحاولة التزام أكبر قدر ممكن من الدقة والموضوعية، والله المستعان .

القصور الذاتي الذي يعاني منه الخطاب الإسلامي منه ما يعود إلى الشكل ومنه ما يعود إلى المضمون ، وهذا ما سأعمل على مقاربته في هذا البحث .

– أولاً : القصور الذاتي على مستوى الشكل :

نعني بالشكل هنا كل ما يتصل بفهم صانع الخطاب للواقع وحاجات الناس المختلفة، وما يقتضيه ذلك الفهم من استخدام لأساليب وأدوات محددة ، بالإضافة إلى ترتيب معين لأولويات الخطاب ، وما ينبغي التركيز عليه دون غيره ، إن شكل الخطاب يظل موصولاً بأمرين : المضمون الذي يعبر عنه ، وأحوال المخاطبين وما يكتنفها من ملابسات وحيثيات ، ويمكن القول : إن مضمون الخطاب يظل أقل عرضة للتطور والتغير من شكله ، وذلك لأن الشكل يتصل بالواقع ، ينفتح عليه ، وإن الانفتاح إلى الواقع هو أكبر مصدر للتطوير والواقع يشبه مادة هلامية تتشكل بسرعة حسب ما نريد ، ما احتفاظنا بطبيعتها ، أي بقبول ما لا يحصى من التشكيلات ، وهكذا فنحن نختلف في شكل الخطاب المطلوب لاختلافنا في قراءة الواقع ، وليس هناك أي أمل في الحد من ذلك الاختلاف ، ولهذا فإن كل ما سأقوله هنا وما سيقوله غيري في قصور الخطاب يظل قابلاً للجدل والتساؤل ، وهذا يثري الفهم ، ويحسن من مستوى الرؤية، ولعلي أتناول ملاحظاتي على شكل الخطاب الإسلامي في المفردات الآتية :

١. ضعف في فهم الذائقة الثقافية الجديدة :

إن الخطاب الإسلامي يستهدف على نحو دائم تفاعل النسا مع أطره ، كما يستهدف استجابتهم لطروحاته ومقولاته ، وهذا لا يكون إلا إذا كان الخطاب ملائماً للذائقة الثقافية السائدة في زمانه ، وهذه الذائقة ليست موحدة لدى الناس على نحو

كامل ، لكن هناك بصفة عامة يتركها كل عصر على أهل زمانه ، ولا شك في أن لكل عصر مفاهيمه التي تشكل درجة قبول الناس للخطاب ، وتلك المفاهيم تكون جزءاً من الذوق العام السائد ، الذائقة الثقافية لدى الناس في حالة من التجدد المستمر، وملامح تلك الذائقة ليست واضحة بما يكفي ، وإن كان كثير منها بادياً للعيان ، ويمكن دائماً الحدس بالعديد من مكوناتها والتي منها :

أ – إعطاء أهمية متزايدة للدلالة الرمزية أو الأبعاد المتوارية للعبارة ، وهذا في الحقيقة ملمح من ملامح الفكر الحديث على نحو عام ، وأنا ألاحظ أن الذائقة الثقافية الجديدة تبدي نوعاً من النفور من الفهم الحرفي والوقوف عند الحدود اللفظية للكلمات ، وهي تستحث صانعي الخطاب على أن يؤكدوا في خطاباتهم على المرامي الانسانية للنصوص عند تحليلها وعند إعادة توظيفها في بناء الوعي الجديد ، وهذا يعني أن الصيغ التقريرية المباشرة والإفراط في ذكر الميزات والسلبيات والإسراف في الترغيب والترهيب لم يعد من الأمور المحببة ، وإن بعض صانعي الخطاب الإسلامي لا يأخذون هذا بعين الاعتبار ، فتراهم مفتونين بتعداد أكبر عدد ممكن من الخصائص للشئ الواحد وأكبر عدد ممكن من الأخطار التي يمكن أن تترتب على فعل فاحشة من الفواحش أو الوقوع في خطأ من الأخطاء .

إن المتأمل في الأحاديث النبوية يجد أنه – صلى الله عليه وسلم – لم يكن من دأبه أو عادته الإكثار من كثرة التقسيمات ولا التفسير المدقق لكل كلمة وردت في القرآن الكريم ، كما أنه لم يكن من دأبه سرد عدد كبير من الفضائل التي يمكن أن يحوزها من قام بعمل معين أو كان في وضعية معينة ، وأعتقد أن إسراف بعض الوعاظ وبعض الأكاديميين في ذلك موروث من عصور الانحطاط حيث كان الناس يركزون على إثراء بعض الأفكار إلى حد المبالغة عوضاً عن إبداع أفكار جديدة ، ولا أدري كيف يحفظ الناس ثلاثين فائدة للسواك وعشرين فائدة لصلاة الجماعة وعشرة أضرار تترتب على التدخين ..

ب – لا تحتفل الذائقة الثقافية الجديدة بالأقوال الطنانة وما يدل عليه البراعة اللفظية والقدرة على تشقيق الكلمات ، كما أنها تهون من شأن الشكوى والفخر وكل ما كان نثرنا وشعرنا يدندن حوله في الماضي مما له صلة بمظاهر الكبرياء والتسلط ، ومازال بعض من يصوغ الخطاب الإسلامي يتعلق بذلك حيث يتم التركيز على

البلاغة اللفظية دون اهتمام جيد بالمضامين ودون تمحيص للأدلة والبراهين المستخدمة، وقد سمعت في الفضائيات من بعض المتحدثين تمجيداً لمواقف تم فيها تعذيب الخصوم والمعارضين ، كما سمعت الكثير من الشكوى حول تآمر الآخرين علينا واستغلالهم لضعفنا في تحقيق مصالح غير مشروعة ، وهذا كله مما لا تحبذه الذائقة الثقافية الجديدة، وقد صار من المستساغ عوضاً عن ذلك الإعلان عن الرغبة في التعلم والاستفادة من الآخرين والتعاطف معهم بالإضافة إلى التهوين من شأن العقبات التي تواجه الناس في كل مجالات الحياة إلى جانب توسيع مدلول الحرية الإنسانية واستهجان الأفكار والتقاليد التي تحث الناس على أن يكونوا أكثر انقياداً وأعظم استكانة لما هو موروث وسائد ، فالمسؤوليات المتزايدة التي على الإنسان أن يتحملها تتطلب منه شعوراً أقوى بالاستقلال والكرامة والحرية والقدرة على الإنجاز والمقاومة .

ج – تميل الذائقة الجديدة إلى استساغة الخطاب الذي يعلي من قيمة الرحمة والتسامح والتعاون والتعاطف والتواصل ، وتؤكد على أن (الخطأ) حق إنساني نابع من قصور البشر وضعفهم ومن اليقين بكر الله – تعالى – ولطفه وعفوه ، ولهذا فإنها تنفر من الخطاب الذي يؤكد على معاني الأنانية والشدة والعقاب والمفاصلة الاجتماعية ، كما أن محاولة الإبداع والإنجاز هي في حد ذاتها نصر وشرف بقطع النظر عن نتائجها ، وهذا على خلاف الموروث من أدبيات الخطابات الإسلامية القديمة ، إننا إذا نظرنا إلى بعض الخطابات الإسلامية السائدة فإننا سنجد أنه متوتر ومملوء بالهجوم على المخالفين والمناوئين ، ويصحب ذلك شعور شديد بالإحباط وانسداد الآفاق إلى جانب الشعور بالضعف والحصار والعجز ..

لا شك أن الغيرة محمودة ، وأن فهم ما يحاك ضدنا مطلوب ، لكن لا ينبغي لهذا وذاك أن يجعل خطابنا احتجاجياً وسلبياً عوضاً عن أن يكون خطاباً بنائياً وهادئاً ومنصفاً ومتزناً .

د – تميل الذائقة الثقافية الجديدة إلى استحسان الخطاب الذي يتسم بقدر كبير من العقلانية والمحاكمة العقلية الجيدة ، وتنفر من الخطاب الذي يتسامح مع الخرافات والغرائب ولا يهتم بالتحليل المنطقي ، وإذا تأملنا في الخطابات الإسلامية السائدة في الساحة الدعوية اليوم ، فإننا سنجد أن بعضها – إن لم نقل كثير منها – يميل إلى الحماسة الزائدة في الحالات الإيجابية والسلبية ، فمن يتحمس من بعض صناع الخطاب

الإسلامي للتراث ينظر إلى الحداثة على أنها تعبير عن التحليل والتمرد والتجديد غير المنضبط ، ومن كان مع الحداثة والتجديد نظر إلى التراث على أنه شيء من بقايا الماضي ، بل نظر إليه على أنه عبارة عن أثقال تعوق الحركة ، ولا تساعد على التقدم، وقد سمعت في أحد المؤتمرات الإسلامية في الولايات المتحدة الأمريكية من يقول : إن معظم تراثنا سلبي ، ولو كان أقل حجماً لكان أفضل ! فعلاً أشعر أحياناً أننا مستقطبون بين عالمين ـ أحدهما خير جداً ، والآخر سيء جداً ، وليس هناك أي أرضية مشتركة تتيح لهما التجانس أو التداخل ويظهر هذا جلياً حين يترك أحد المنتسبين إلى إحدى الجماعات الإسلامية جماعته ، أو تنشق الجماعة على نفسها ، حيث يتحول بصورة عجيبة الثناء والمديح المسرف إلى نقد لاذع يصل أحياناً إلى حد التفسيق والتكفير والذي يمهد الطريق أمام القتال والصدام المسلح .

هذا التوصيف للذائقة الثقافية الجديدة ظني وقابل للجدل ، وغير معمم على نحو مطلق كما أنني لا أصدر على ما أظن أنه ذائقة ثقافية جديدة أحكاماً بالاستحسان أو الاستهجان لكن أقول : إنها تستحق المراعاة والفهم والتحليل ، ولا تتسع هذه الورقة للإفاضة في هذه المسألة ، فلننظر إلى ما ذكرناه من ذلك على أنه نموذج ليس أكثر .

٢. خطاب احتجاجي :

يوصف الخطاب الإسلامي من قبل بعض خصومه بأنه ميال إلى الاحتجاج وبأنه مملوء بالعتب واللوم : عتب على الأعداء ومؤامراتهم ، وعتب على الجماهير وانحرافاتهم وتقصيراتهم ، وعتب على الحكام وعدم تطبيقهم للشريعة ، وعتب بعض صانعي الخطاب على بعضهم الآخر ، وهذا الاتهام ليس من غير أساس ، فبعض من يضع الخطاب الإسلامي ذوو مزاج سوداوي ورؤية للواقع وللخصوم ولعامة الناس ، وتجد هذا لدى بعض من يتحدث في الفضائيات ، كما تجده في كثير من المجلات الإسلامية ، مع أننا نعرف أن المجلة الجيدة هي المجلة التي تجمع بين الفائدة والمتعة ، وكلما اقتربت من متعة الرواية والقصة كانت أشد جاذبية للقراء ، لكن واقع كثير من المجلات الإسلامية يغاير هذا على نحو تام ، فهي خالية تماماً من المتعة ، وتثير في نفس قارئها الحزن والأسى والأسف ، وما يتبع ذلك من تأزم وإحباط .

أنا لا أرى في العتب واللوم والاحتجاج شيئاً خاطئاً على نحو دائم ، حيث لابد من شيء من ذلك في كثير من الحالات والمواقف ، لكن الذي لا أراه مناسباً هو جعل ما

أشرنا إليه شيئاً طاغياً على الخطاب وحاضراً في كل مناسبة وكل موقف ، والمطلوب عوضاً عن ذلك التركيز على التحليل للظواهر ومحاولة فهم الأسباب والتداعيات المنطقية للأحداث والأوضاع ، كما أن علينا أيضاً أن نوسع دوائر الشرح والتعليم ، ونطور في الآليات التي تقدم للناس معونة حقيقية على صعيد القيام بأمر الله – تعالى – وتنفيذ المهمات المطلوبة منهم بجدارة واقتدار ، إن فهم الداعية للأسباب التي تؤدي إلى تقصير الناس أو إلى تسلط الأعداء أو إلى فشو الظلم وأكل الحقوق .. هو الذي يخفف من أسلوبه الاحتجاجي ، ويجعله يميل إلى الصفح والإعذار ، والأهم من كل ذلك الاندفاع نحو بلورة صيغ عملية للمعالجة ، وأنا أعتقد أن علينا أن نحاول صياغة اسئلة كثيرة ومحددة حول واقع الأمة ، ثم نجتهد في إيجاد أجوبة عميقة وشاملة لها ، ومن تلك الأسئلة .

- لماذا قاد المسلمون العالم قروناً ، ثم صاروا يبحثون عن مكان في مؤخرة القافلة فلا يجدون ؟
- نحن نعتقد أننا نملك أفضل نظرية اقتصادية لرخاء العالم ، ومع هذا فمعظم المسلمين فقراء ، لماذا يحدث هذا ؟
- لماذا فقد معظم المسلمين روح المبادرة إلى الخير ؟ ولماذا أضعفت روح المشاركة في الأعمال التطوعية ؟
- هل مشكلة ضعف الالتزام بالمنهج الرباني الأرشد هي أكبر المشكلات التي نعاني منها ؟ أو هو الأصل الذي تولدت منه كل المشكلات ؟ وهل هناك مشكلات لا يمكن حلها عن طريق الالتزام وحده ؟
- لماذا لا نجد تقدماً مهماً في وضعية الأمة ، أو قل : لماذا لم يطرأ تطور يذكر على صعيد تشخيص أدواء الأمة ، ولا على صعيد علاجها الذي عليها أن تتناوله ، مع أنه مضى على حديثنا في هذا وذاك ما يزيد على قرن ونصف؟

من المهم أن نجيب على هذه الأسئلة عبر مئات البحوث والدراسات والمقاربات المنهجية ، ثم نفكر في الأساليب التي تمكنا من إيصال ما نتوصل إليه إلى جماهير المسلمين ، فهذا أعود عليهم بالنفع من اللوم والتقريع .

٣. خطاب ضعيف التأثير :

لا شك في أن صانع الخطاب الإسلامي محسود من قبل صانعي الخطابات الأخرى ، وذلك لما يملكه من قدرة على التجييش والتأثير ، ولما يناله من حب وتفاعل من قبل الجماهير الإسلامية العريضة ، لكن علينا أن لا ننسى أن الإنسان المسلم يستجيب بطبيعة تكوينه الإيماني لمن يتلو عليه آيات الله ، ويجد نفسه ملزماً بالانقياد لمن يدعوه إلى الخير – ولو على مستوى شكلي – وأنا هنا لا أقلل أبداً من قيمة الجهود المباركة التي بذلت وتبذل في سبيل الارتقاء بالخطاب الإسلامي لكنني أنظر إلى خطابنا من أفق الإمكانات المعنوية والمادية المتاحة لنا ، ويبدو لي في هذا السياق أن بعض صانعي الخطاب لم يستوعبوا بعد التغيرات التي طرأت على الساحة الثقافية ، فلو أننا عدنا إلى ما كان قبل مئة عام لوجدنا أن الدعاة وطلاب العلم الشرعي والخطباء والوعاظ يشكلون النسبة الكبرى بين صانعي الخطابات ، وكانوا فعلاً ملء السمع والبصر ، لكن الأمر اختلف اليوم اختلافاً جذرياً ، فهناك جيوش من الكتاب والأدباء والصحفيين والإعلاميين والمتخصصين في شتى فروع المعرفة ولهم حضور إعلامي في الحياة العامة ، وهذا جعل صانع الخطاب الإسلامي يواجه منافسة حادة لم يسبق لها نظير في حياة الأمة ، وعلينا أن لا ننسى أن (الانترنت) تقلب اليوم الكثير من الأوضاع القديمة ، حيث صار في إمكان أعداد هائلة من الشباب ومن متوسطي الثقافة أن ينشروا على الشبكة العنكبوتية كل ما لديهم ، وفيه طبعاً الغث والسمين ، والجيد والرديء ، وهذا يترك في أذهان الناس الكثير من المفاهيم والتصورات الخاطئة ، ولنا أن نضيف إلى كل هذا ما نلاحظه اليوم من صعوبة التأثير في قناعات الناس وصعوبة تغيير آرائهم ، وذلك بسبب تقدم الوعي وتكاثر وسائل التثقيف ، ومن المعروف أن الناس في أوضاع التخلف يتقبلون الآراء الشخصية لأهل العلم على أنها حقائق ثابتة ، لا تتحمل النقاش ، ولهذا فإنهم لا يجادلون كما يجادل الناس اليوم ، أما حين تكثر مصادر التثقيف ، وتكثر المدارس والتيارات ، فإن الأمر يختلف حيث يصبح الكثير مما هو موضع إجماع ، أو ما هو معروف ومشهور بين أهل العلم موضع مراجعة وتساؤل وجدل ، وهذا كل يشكل تحديات جديدة أما صانع الخطاب الإسلامي ، وأحب أن أشير في مسألة التأثير إلى الأمور الآتية :

أ – نحن الآن في عصر التخصصات الدقيقة والثقافة المتشعبة ، وقد صار من الواضح أن المسافة الفاصلة بين المثقفين ثقافة عليا وبين المنتسبين إلى الثقافة الشعبية – في حالة

من الاتساع الدائم – مما يوجب على صانعي الخطاب الإسلامي أن يهتموا بصياغة خطاب ذي مستويات مختلفة ، وحتى يتمكنوا من ذلك فلا بد لهم من توفير تأهيل متخصص في المعاهد والكليات الشرعية ، ولابد من توفير مواد تثقيفية ينهل منها الدعاة الجدد ، ومن الملاحظ في السنوات الأخيرة سيطرة الخطاب الموجه لذوي الثقافة المتدنية ، حيث التحدث بالعامية ، وحيث المبالغة في الترغيب والترهيب ، وبيان الخصائص والميزات المتعلقة بالأحكام والآداب الشرعية ، ويصحب هذا فقر مدقع في الخطاب الموجه للنخبة من المثقفين وذوي الثقافة المتوسطة ، ولا يخفى أن خطاب الصفوة يقوم على الثراء المعرفي وسعة الرؤية واختيار التعبيرات والتشبيهات الراقية والبعيدة عن الابتذال والاستهلاك التداولي ، بالإضافة إلى اغتنائه بالتعليل والتفلسف والإحصاءات والمعلومات الدقيقة والموثوقة ، والذين يستطيعون صياغة خطاب بهذه المواصفات قليلون جداً ، ولهذا فإن الخلط في إدراك حاجات المخاطبين هو سيد الموقف .

إن ذوي الثقافة المتدنية يحتاجون إلى الإكثار من الأمثلة والإقلال من التنظير والتحليل ويحتاجون قبل هذا وذاك إلى خطاب يلامس هموم معيشتهم اليومية ، وهو إلى جانب ذلك شديد الوضوح لأنهم يرون في التعبيرات الغامضة نوعاً من التسلط عليهم أو التغرير بهم ، في بعض الأحيان تكون المشكلة في غموض ما نتحدث عنه في أذهاننا وتصوراتنا ، وهذه مشكلة لأننا لا نستطيع أن نشرح القضية الواحدة بطرق مختلفة ومستويات عديدة إذا لم تكن متألقة في أذهاننا ، وتألقها يحتاج إلى الاستمرار في التعلم والتثقيف الجيد ، وهذا ما يحرم منه ، كثير من صانعي الخطاب بسبب ما يتطلبه التصدر للتعليم والدعوة والتوجيه من طاقة هائلة ، ووقت غير محدود بحدود .

ب – يعاني جانب كبير من الخطاب الإسلامي مما يمكن أن نسميه داء (الخطابية) أي معالجة مشكلات معقدة عن طريق الكلام المنمق والحماسة الملتهبة .. وهذا شيء موروث من الماضي البعيد حيث كانت الحياة أميل إلى البساطة ، لكن الأمر اليوم مختلف اختلافاً كبيراً حيث إن صانع الخطاب الإسلامي كثيراً ما يجد نفسه مضطراً إلى معالجة قضايا كبرى ومعقدة مثل انتشار الجهل والتحلل الخلقي والانحراف العقدي والبطالة والاستبداد والتعصب والتأزم الفكري والعلاقة المتوترة مع الغرب والتخلف الصناعي وأمور من هذا القبيل ، ومن الواضح أن هذه القضايا تنتمي إلى عدد كبير

من المجالات المعرفية والحضارية والتأثير في المخاطبين يتطلب من صانع الخطاب الفهم الدقيق لما يتحدث عنه والإطلاع الشامل عليه ، وهذا لا يتهيأ في العادة لأحد على النحو الممتاز ، والنتيجة هي اعتماد الخطيب أو الكاتب على المتخصصين في شتى المجالات التي يتطرق إليها ، وفي هذا دائماً نوع من المجازفة باعتماد أفكار ومعلومات وإحصاءات لا يقرها الموثوقون من أهل التخصص الذي تنتمي إليه ، وهذا ملموس ، حيث تجد من يتحدث عن الشورى أو البطالة أو التخلف الصناعي ، حديثاً قد يضر السامعين أكثر مما ينفعهم ، وهذه المشكلة تواجه كل صانعي الخطاب الإسلامي وغير الإسلامي ، وقد لا يكون أمامنا حل سوى التخصص ، هذا مفكر متخصص بالشأن السياسي ، وهذا مفكر متخصص بالشأن التربوي ، وهذا كاتب متخصص بشؤون المرأة ، وهذا متخصص بالشؤون الاقتصادية ، والذي أعنيه طبعاً هو كون التخصص العلمي جزءاً من اهتمامات رجل مهمته الأساسية الدفع بالأمة نحو الأمام ، وتبصيرها بالمشكلات التي تواجهها إنه يستخدم معرفته المتخصصة في تنمية وعي الناس وإصلاح شؤونهم وترقية أوضاعهم في المجال الذي تخصص فيه وحين يتوفر نمط رفيع في أي مجال ، فإن باقي الدعاة والكتاب والوعاظ والمهتمين بتربية الشباب ينهلون منه ، ويوظفون ما يأخذونه عنه في عملهم ، ولدينا نماذج مشرقة في كل مجال من المجالات المعرفية ، لكنها أقل بكثير من الممكن ومن المطلوب .

ج – مع التقدم الحضاري يتحول أكثر الأشياء البسيطة إلى أشياء معقدة ومركبة ، ومنها تلك التي تؤثر في تغيير قناعات الناس واتجاهاتهم ، وهكذا لم يعد كافياً لإقناع الناس بأهمية الصلاة أن تذكر لهم فوائدها الروحية والصحية والاجتماعية .. كما أنه لم يعد كافياً لتنفيرهم من الخمر التركيز على شرح الأضرار التي تترتب على شربها .. إن الإقناع اليوم يحتاج إلى ما هو أكثر من مقدمات ونتائج حسنة السبك والارتباط ، إنه يحتاج إلى فهم تقنيات الخطاب التي تحفز المخاطبين على قبول الفروض والنظريات والأحكام والآداب التي تقدم إليهم ، ويوجد في الحقيقة شبه كبير بين المجال الدعوي والمجال التجاري ، وسيكون من المفيد لصانع الخطاب الإسلامي التأمل في آليات التأثير التي يستخدمها التجار لحمل زبائنهم على دفع أعلى الأسعار للسلع التي يحاولون بيعها لهم ، ومما يلاحظ في هذا الشأن وجود اندماج واندغام كبير بين الشكل والمضمون ، أي بين الأشياء المستهدفة بالشراء والاستهلاك وبين طريقة تغليفها

وتقديمها والمكان الذي تباع فيه ومظهر البائع والاسم التجاري لمحل البيع وشهرته ومدى تقدير الناس لسوية الجودة التي يحرص عليها ، وهذا كله فرع من ثقافة الصورة والشكل والمظهر الانطباع الذهني التي تكرسها الحضارة الحديثة ، بعبارة أخرى لم تعد جودة المنتج كافية لجني الأرباح الوفيرة من وراء بيعه ، وإنما لا بد من إيجاد جو كامل من المنبهات والمثيرات ، وهكذا الشأن بالنسبة للإقناع بالأفكار والمفاهيم وأسلوب الحياة الذي يروج له الخطاب الإسلامي ، فالناس يتفاعلون مع الخطاب ويتأثرونه من أفق العديد من الأمور ، منها الخلفية التي كونوها عن صانع الخطاب : هل هو متخصص بما يدعو إليه أولاً ؟ وما الشهادات التي يحملها ؟ وأين درس ؟ ما طبيعة عمله ؟ وأين يعمل ؟ أضف إلى هذا المكان الذي يتحدث فيه ونوعية من دعاة إلى الحديث ومكانته ، إلى جانب المشهد المصاحب للحديث : من الذين حضروا ؟ وما موقفهم مما قيل ؟ هل هو موقف المعارضة أو موقف الثناء والتأييد ؟ وهذا كله إلى جوار ثقة المتحدث بنفسه ومدى انسجامه مع الجمهور ، وحين تكون وسيلة الخطاب عبارة عن كتاب – مثلاً – فإن لعنوان الكتاب وتصميم غلافه واسم دار النشر التي أخرجته تأثيراً في موقف الناس منه .

إذا أردنا أن ندلف إلى واقع الخطاب الإسلامي في هذا الإطار فسنجد الكثير من الخلل في أكثر ما ذكرناه ، لأن نظرتنا لذلك مازالت قديمة ، التي تنظر إلى كل ما يتعلق بالشكل على أنه من القشور التي لا تستحق أي توقف عندها ، لكن الزمان قد اختلف ، وقيمة تغليف بعض الهدايا تضاهي الهدية نفسها ، ولا بد من أخذ ذلك بعين الاعتبار إذا ما أردنا أن نصنع خطاباً مؤثراً وجذاباً ، لكن علينا أن لا نفقد التوازن والاعتدال كما يحدث أحياناً في بعض المواقف .

ثانياً – القصور الذاتي على مستوى المضمون :

المقصود بالمضمون هنا مجموعة الرؤى والمفاهيم والأفكار والتطلعات التي يرى صانع الخطاب أن عليه أن يوصلها للناس عبر أداة من أدوات الخطاب وبأسلوب من أساليبه، وهذا ليس كل ما يريد صانع الخطاب تبليغه للناس ، فهناك العقائد والمبادئ والقيم الإسلامية ، لكن هذه ثوابت لا تتغير بتغير الزمان والمكان ، أما الأفكار والرؤى والطروحات والحلول التي تشكل جوهر الفكر ، فإنها وإن كانت تظل مؤطرة بالأصول والثوابت إلا أنها في الحقيقة أقرب إلى أن تكون أدوات للفهم وتشخيص

الواقع واستشراف المستقبل ، كما هو الشأن فيما لدينا من أفكار في تطوير التعليم والنظم الإدارية ومكافحة الفساد .. ولهذا فهي ذات طابع اجتهادي ، وهي لن تكتمل أبداً ، وتظل قابلة لنوع من المراجعة والنقد والتغيير ، فالعقل البشري لا يدرك الحقائق دفعة واحدة ، وإنما عبر مراحل متتابعة ، وإذا أردنا أن نستقصي أوجه القصور الذاتي في الخطاب الإسلامي ، فإننا سنحتاج إلى مساحة واسعة جداً ، ولهذا فإني سأتحدث عن بعض الأمور المهمة ، مع الإيمان بأن كل ما سأقوله هو أيضاً صادر عن اجتهاد ورؤية غير مكتملة ، ولن أستطيع أن أضع السكين على المفصل في كل مرة ، فحسبي أن أقترب منه ، ولعلي أعرض لذلك عبر الملاحظات الآتية :

١. لا يستطيع الخطاب الإسلامي بأطيافه وتلويناته المختلفة إلا أن يكون خطاباً شمولياً يتناول كل جوانب الحياة وكل احتياجات الناس ، وذلك لأنه يعكس شمولية الإسلام ، وهذا ليس موضع جدل ، وهذه الشمولية تتطلب من صانعي الخطاب أن يشخصوا حاجات النسا من خلال فهم واقعهم وفهم الواقع العام ، ومن خلال فهم العلاقات التي تربط المجتمعات الإسلامية بالمجتمعات الأخرى ، وهذا يتطلب الوقوف على الكثير من التفاصيل في مسائل وموضوعات متباعدة ، فنحن نعرف أن (الواقع) ذو طبيعة زئبقية ، فهو مرن جداً وقابل للكثير من القراءات والتفسيرات ، والقبض عليه في غاية الصعوبة ، والحقيقة أن لإدراك الواقع والوقوف على حيثياته طريقتين : الأولى وهي الطريقة الفطرية والسريعة وغير المكلفة ، وهي اللجوء إلى التمثل الذهني والحدس والاعتماد على المعلومات الشخصية الناجزة ، أما الطريقة الثانية فتقوم على البحث وجمع المعلومات والمسح الفني واستطلاع آراء الناس ، ومطالعة ما كتبه الآخرون حول الموضوع الذي يريد صانع الخطاب معالجته ، والطريقة الثانية شاقة وتحتاج إلى وقت ومال ومهارة بحثية ، قد لا تتوفر لدى الكثيرين ، ولهذا فإن الشاهد أن معظم الذين يصوغون الخطابات الإسلامية – ولا تختلف كثيراً الخطابات غير الإسلامية في هذا – يعتمدون الطريقة الأولى ، وهذا أمر طبيعي جداً في البلدان النامية ، حيث تكون المعارف المنظمة والأرقام الدقيقة والموثوقة قليلة جداً ، ومهما يكن الأمر فإن النتيجة هي فهم مبستر للواقع ولحاجات الناس ، يترتب عليه قصور في أولويات المعالجة وأسلوب الخطاب ، وهذا واضح جداً في نظرة صانعي الخطاب الإسلامي لحال الصحوة الإسلامية اليوم ، فمنهم من يقول : إن الصحوة قد تراجعت

تراجعاً كبيراً ، وإن الأمة تمر بمرحلة من أسوأ المراحل التي مرت بها عبر تاريخها ، وهناك من يقول : إن هذا العصر هو من أزهى عصور الإسلام ، وإذا سألت خمسة ينتمون إلى جماعة إسلامية واحدة عن أحوال جماعتهم ، فليس من المستبعد أن تسمع منهم إجابات متناقضة ، وكل ذلك بسبب الاعتماد على الرؤية الشخصية في فهم الأمور دون البحث عن معطيات خارجية أو معايير معتبرة .

إن هذه الوضعية واحدة من مفرزات التخلف ، وهي تحتاج إلى معالجة سريعة إذا ما أردنا للخطاب الإسلامي أن يكون أفضل مصداقية وأعظم تأثيراً ، وقد كنت قد دعوت في غير مناسبة إلى أن تقوم الجهات والهيئات والمؤسسات والجماعات الإسلامية بإقامة مراكز بحثية صغيرة من أجل إجراء دراسات والقيام بإحصاءات تخدم أعمالها والمهمات التي تصدت إليها ، كما كنت دعوة إلى أن توفر تلك الجهات والهيئات .. أكبر قدر ممكن من المعلومات والأرقام عن أنشطتها وذلك من أجل تعريف الناس بجهودها ونشر الوعي بالأهداف التي تعمل على تحقيقها ، لكن يبدو أن هذا لا يشكل أولوية في نظر الكثيرين .

إن في إمكانية القول : إن الكثير من الخلافات بين صانعي الخطاب يعود إلى عدم الانفتاح على الواقع من خلال فهمه بطرق علمية ومنهجية معترف بها ، وعلى سبيل المثال فإن كثيراً من صانعي الخطاب الإسلامي يجدون أنفسهم مدفوعين إلى الحديث في الشأن السياسي ، وهم يفعلون ذلك دون الحصول على الخبرة المطلوبة ، فهم لم يقرأوا في السياسة على نحو منهجي ورصين ، فيتعرفوا على أصول علم السياسة ومناهجه ومقولاته الأساسية ، كما أن معظمهم لم يمارسوا العمل السياسي ، ولم يتولوا مناصب سياسية ، فيتمكنوا من فهم طبيعة المجال السياسي وما فيه من تحالفات ومناورات ومشكلات ، ومن هنا نجد أن الموقف من السياسة والسياسيين كثيراً ما يكون هو العامل الأكبر في فرقة صانعي الخطاب الإسلامي والعامل الأكبر في ضعف فاعلية الخطاب الإسلامي في إصلاح الشأن السياسي ، ولك أن تقول نحواً من هذا بالنسبة إلى المجال الاعلامي والمجال الاقتصادي .

٢. تظل العلاقة بين المجتمع والدولة علاقة معقدة ، ولم ترتبك البشرية على مدار تاريخها الطويل في أمر مثل ارتباكها في مسائل الخطاب السياسي وإقامة الهياكل السياسية التي تدير شؤون المجتمع ، وعلى الرغم من تراكم التجارب وتنوعها وكثرة

البحوث والدراسات والدروس والمآسي ، فإن الجدل ما زال محتدماً حول الصيغة المثلى لتكوين سلطة ، تنشر العدل وتحقق تكافؤ الفرص ، وتحول دون وقوع التعانف إلى جانب العمل على تكوين بيئة ينمو فيها الإنسان النمو الذي يتطلبه العيش في زمان كثير التحديات وكثير المتطلبات ، وأنا في البداية لا أقلل أبداً من أهمية وجود دولة صالحة وقوية ومستقرة ، وقد رأينا بأم أعيننا ما يترتب على غياب الدولة من فتن ومآسي وخراب ودمار ، وهذا لا يكاد يختلف فيه ، لكن الذي آخذه على معظم صناع الخطاب الإسلامي هو ذلك التركيز المبالغ فيه على ما يمكن أن تقوم به الدولة من إصلاحات ، وما تنجزه من مهمات وعلى إمكاناتها في مقاومة الشرور ومحاصرة الفساد ، الفرد المسلم يعلق الآمال على صلاح الدولة ، وكثير من الجماعات الإسلامية تحلم بالوصول إلى كراسي الحكم ، والجميع يحملون الحكومات كل الانكسارات والانتكاسات التي تحدث في أي مجال من المجالات ، وقد صار قول عثمان – رضي الله عنه – : (إن الله يزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن) من الأقوال المتداولة على ألسنة كثير من الناس في أوساط الصحوة الإسلامية ، وفي هذا تعبير واضح عن اتجاه الوعي الإسلامي المعاصر نحو الاهتمام بالدولة والسياسة ، وقد ترتب على هذا شيئاً فشيئاً .

الأول : هو ضمور الوعي العام بالدور الجوهري الذي يمكن أن يقوم به الفرد المسلم في تنمية الحياة ونشر الخير والحيلولة دون انتشار الفساد .

الثاني : تباطؤ الناس في إقامة الهيئات والمؤسسات والروابط الخيرية والطوعية والإغاثية واللاربحية التي تجعل احتياج الناس إلى الدولة عند حده الأدنى ، ولا يخفى أن المجتمعات الإسلامية هي الأفقر في المؤسسات (اللاربحية) بين دول العالم ، وهذا مما يدعو إلى الأسف .

إن مطالبة الحكومات بالمزيد من العمل والمزيد من التدخل في الحياة العامة سيعني الموافقة على منحها المزيد من الصلاحيات والسلطات ، وهذا في نظري لا يصب في مصلحة الحكومات ، كما لا يصب في مصلحة المجتمعات ، فالدولة الفاضلة ليست هي الدولة الكبيرة المتضخمة لأن احتياج الدولة إلى أعداد كبيرة من الموظفين سيجعلها مضطرة إلى التوسع في التوظيف والتساهل في شروط الصلاح والكفاءة التي

ينبغي توفرها في موظفيها ، كما أن سيطرة أهل الصلاح والكفاءة ستكون أقل حين تتسع قاعدة موظفي الدولة ، وهذا شيء غير جيد .

إن الحكومات الشيوعية والاشتراكية خاضت تجربة طويلة ، فيها عبرة لمن يعتبر ، حيث تمددت الدول هناك تمدداً مشوهاً ، وكان ذلك على حساب المجتمعات إلى حد القول معه : إن الدولة ابتلعت المجتمع ، وحين انهك الفساد الدولة ، وفقدت محفزات الإبداع وانهار النظام العام ، تلفت الناس حولهم فلم يجدوا شيئاً ، لا الدولة ولا المجتمع، إذا كنا نعتقد أن الدولة الفاضلة هي التي تدير شؤون مجتمعاتها بأقل قدر ممكن من القوة ، فإن المجتمع الفاضل هو الذي يقوم بشؤونه مع أقل قدر ممكن من الحاجة إلى الدولة ، والحقيقة أن طبيعة تكوين الدولة وطبيعة موقف الناس منها تملي عليها أن يكون دورها الأساسي هو حماية المجتمع ، أما تشييد أبنيته فهو من مهمات الهيئات والمؤسسات الشعبية ذات الطابع الطوعي ، وهذا ما نلمسه في حضارتنا الإسلامية أيام ازدهارها ، كما نلمسه على نحو خاص في حقبة الخلفاء الراشدين – رضوان الله عليهم – وإن المتأمل في القرآن الكريم يجد أن الله – سبحانه – لم ينبه المسلمين إلى ما يمكن أن تحققه لهم الحكومة الإسلامية من خيرات ، ولم يثر حماسة المسلمين إلى العمل من أجل إقامتها بوصفها الركن الأساسي في الحياة الإسلامية ، لكن أكد على تبليغ الرسالة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والتقوى والعدل والإحسان والصدقة وخوف الله – تعالى – والعمل للآخرة ، وحين يمن الله على عباده ببسط نفوذهم في الأرض ، فإنهم يستخدمون ذلك النفوذ في طاعته والتقرب إليه على نحو نجده في قول الله – تعالى – { الذين إن مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله عاقبة الأمور } سورة الحج آية ٤١ ، وكان تركيز النصوص في المقابل على دعم الحياة الاجتماعية بوصفها القاعدة الأساسية لوجود الأمة ، حيث نجد الحث على التكافل الخلقي والتعاون المادي والتضحية من أجل سلامة الجماعة والملة ومؤازرة الضعيف والوقوف إلى جانب المظلوم .

شيء آخر يلاحظه المراقب لدى بعض صانعي الخطاب الإسلامي هو المطالبة القوية بأن تتبنى الدولة طروحاتهم واجتهاداتهم التي لا يوافقهم عليها غيرهم من صانعي الخطاب الإسلامي ، وإذا لم تفعل الدولة ذلك فهي دولة غير جيدة ، ويحدث مثل هذا

لأنهم لا يعرفون آلية عمل الدولة وكونها مركزاً للحلول الوسطى ومراعاة الأوضاع المتباينة ، إن من المهم أن ندرك على نحو لا لبس فيه أن الدولة – أي دولة – لا تستطيع أن تبتعد كثيراً في كفاءتها ونزاهتها وإبداعاتها عن السوية السائدة في مجتمعها، على الصعيد الخلقي والعلمي والسلوكي ، ويذكرون في هذا السياق أنه قيل لعلي – رضي الله عنه – : (إنك لا تسير فينا سيرة الشيخين أبي بكر وعمر ؟ فقال : الشيخان كانا أميرين على أمثالي ، وأنا أمير على أمثالكم) ويروى أيضاً أن معاوية – رضي الله عنه – قال لابنه يزيد : (كيف ستسير في الناس بعدي ؟ فقال يزيد : بسيرة الشيخين أبي بكر وعمر ، قال معاوية : حاولت أن أسير فيهم بسيرة عثمان فلم أستطع) .

من المهم أن يتفق كل صانعي الخطاب الإسلامي وغير الإسلامي وكل من يعنيهم أمر صلاح الأمة وإصلاحها على بعض الخطوط العريضة في هذه المسألة الحيوية ، وإذا كان لي أن أجتهد في تحديد بعض تلك الخطوط ، فيمكن أن يكون منها الآتي :

أ – لا يصح استخدام أي شكل من أشكال العنف في أي شكل من أشكال الإصلاح.

ب – من المهم الاتفاق على آلية لانعكاس صلاح المجتمع ورشاده على حكومته .

ج – الدور الأساسي في نهضة الأمة منوط بمؤسسات المجتمع وهيئاته ، وعلى الدولة تشجيع الناس على ذلك بكل وسيلة ممكنة .

د – من حق المجتمع أن يراقب طريقة ممارسة الدولة للسلطة والصلاحيات المنوطة بها.

هـ – على الناس الخضوع للنظم والقوانين السارية والمساعدة على إشاعة الأمن والاستقرار .

و – دور الدولة الأساسي هو رقابي إشرافي ، وهي تقوم بحماية المجتمع وتولي ما يعجز المجتمع عن القيام به .

وقد أطلت الحديث في هذة النقطة لأنني أرى فيها الكثير من الالتباس في العديد من الخطابات الإسلامية .

٣. نحن نعرف أن نجاح الخطاب الإسلامي في مهماته التبليغية والدعوية يتوقف على أمرين جوهريين :

أ – تجويد الخطاب واستيفاؤه للشروط والسمات التي يتطلبها الخطاب المؤثر .

ب – استجابة المخاطبين له ، وتفاعلهم مع مقولاته وطروحاته وأطره العامة .

ولابد من القول : إن صانعي الخطاب الإسلامي بذلوا الكثير من الجهد الحثيث والمبارك على صعيد رفع مستوى الخطاب وتحسين آرائه ، وإن كان مازال في الإمكان فعل الكثير الكثير على هذا الصعيد .

أما على صعيد استجابة الناس للخطاب وشروط ذلك وحيثياته وعلى صعيد البيئة والمجال الذي يقدم الخطاب للناس فإن معظم صانعي الخطاب لم يبذلوا الجهد المطلوب، وبالتالي فإنهم على دراية ضعيفة بمواقع كلامهم وبأسباب ضعف تأثيره في كثير من المواقف والأوضاع ، ولا بد من أن نعترف بأن المسألة معقدة غاية التعقيد ، لأن صياغة خطاب يؤثر في الناس على الصعيد الاقتصادي – مثلاً – ويكون في الوقت نفسه متوازياً ولماحاً – تحتاج في الحقيقة إلى أن يكون صانع الخطاب متعمقاً في علم الاقتصاد ، وهذا أمر شاق ، لأنه يجد نفسه مطالباً بالتحدث والكتابة في الكثير من الموضوعات التي تنتمي إلى علوم ومجالات مختلفة.

إن لله – تعالى – سنناً في النفوس والمجتمعات وكل شؤون الحياة ، وإن الناس يخضعون لتلك السنن ، كما أن الطبائع تتجلى في السلوكيات والمواقف والعلاقات المختلفة ، وفهم كل ذلك شرط لصياغة خطاب فاعل ومؤثر ومنتج ، الفهم يتطلب البحث والتأمل والتخصص وتوليد الأفكار وتوسيع دوائر الخبرة ، وإن كثيراً من صانعي الخطاب الإسلامي لا يملكون الوقت والمحفز والفرصة للقيام بكل ذلك ، وأنا سأحاول هنا ضرب بعض الأمثلة التي توضح ما أريد قوله :

أ – أمة الإسلام أمة واحدة ، والحس الإسلامي العميق يحن حنيناً قوياً إلى توحد الأمة وخضوعها لإرادة سياسية واحدة ، وعلى مدار التاريخ كان الناس يوجهون ولاءهم نحو الأمة وليس الدولة أو الشعب ، ويقفون بدافع لا شعوري ضد كل حركات الانفصال والتجزئة ، وهذا كله ليس مستغرباً ولا مستنكراً ، ومن ثم فقد تجلى في الخطاب الإسلامي الحديث بصورة واضحة ، ويمكن أن نلمسه في موقف صانعي الفكر الإسلامي من سقوط الدولة العثمانية ، فهي على علاتها وضعفها وما لديها من قصور وانحراف كانت رمزاً لوحدة المسلمين لأن الرابطة التي كانت تربط الدول التي تحت لوائها هي رابطة إسلامية محضة ، فهي ليست رابطة عرقية أو قومية أو إقليمية ، إن من يغفل الحديث عن الوحدة الإسلامية ، ومن لا يدعو إليها ولا

يتأسف على سقوط الحكومة العثمانية يعرض نفسه لنوع من الاتهام بعدم الحرص على لم شمل المسلمين ، حيث لا يجوز أبداً أن يطغى على التوحد على أساس الإسلام أي شكل من أشكال التوحد .

لا شك أن هذا يعبر عن الغيرة والعاطفة الإسلامية الجياشة ، لكن ضعف الخبرة بالأوضاع العالمية والأوضاع الإقليمية إلى جانب ضعف الخبرة بالشروط الاجتماعية والثقافية والاقتصادية المطلوبة لنجاح الوحدة ، أقول إن ذلك هو الذي يجعل الناس غير مستعدين للتوقف والتساؤل عن كيفية تحقيق الوحدة ، وكأنهم يعرفون أن الخوض في التفاصيل سيعني عدم وجود إمكانية للوحدة أو سيكشف عن مدلولات سلبية كثيرة ، لذلك فالأولى الابتعاد عن ذلك ، نحن نعرف أن للوحدة مستويات كثيرة ، فقد تكون على مستوى العلاقات الخارجية بالدول الأخرى ، وقد تكون على مستوى القرار السياسي، وقد تكون على المستوى الاعلامي والاقتصادي والتعليمي... والخطاب الإسلامي يركز على الوحدة السياسية والوعي الإسلامي نفسه لا يدرك من أشكال الوحدة على البداهة أي مستوى من مستوياتها قبل المستوى السياسي وهذا شيء غريب ، لأن تحقيق الوحدة على المستوى السياسي ينبغي أن يكون في أعلى السلم ، وذلك لأن السياسة بطبيعتها هي استثمار السياسيين للإمكانات المتوفرة لديهم ، وهكذا الوحدة السياسية .

إن هناك نسبة ليست قليلة من المسلمين تعيش بوصفها أقليات في دول غير مسلمة ، كما أن كثيراً من الدول الإسلامية مرتبط باتفاقات دولية ، ومنتم إلى تكتلات وأحلاف إقليمية تحول بينها وبين الاندماج في دول تعيش في قارة أخرى ، قد انتهى فعلاً عصر الإمبراطوريات ، ومن يحاول استرجاعه – كما تفعل الولايات المتحدة اليوم – فإنه لن يحصل على شيء ، وستكبد الكثير الكثير من الخسائر ، إذن ما الذي على الخطاب الإسلامي أن يركز عليه في شأن الوحدة ؟ .

في تصوري أن علينا أولاً أن نحذر من تضييع الممكن في طلب المستحيل ، وعلينا أن نباشر الممكن مهما كان محدوداً وغير مرض ، حتى نستفيد من المبدأ العملي القائل : إذا عملنا ما هو ممكن اليوم صار ما هو مستحيل اليوم ممكناً غداً .

وأظن أن جهود توحيد الأمة يمكن أن تمضي في دائرتين تفتح إحداها على الأخرى ، الأولى : العمل على إنشاء تكتلات إقليمية على غرار ما فعلته دول الخليج .

الثانية : العمل الدؤوب على إقامة أكبر عدد ممكن من الاتحادات والروابط والهيئات والمجالس المشتركة على مستوى العالم الإسلامي بطوله وعرضه ، وذلك مثل اتحاد مجالس الشورى والبرلمانات الإسلامية ، ومثل اتحادات المزارعين والعمال والصناعيين والتجار والأطباء والمهندسين والمعلمين والطلاب والرياضيين والإعلاميين المسلمين ... ومن المهم جداً أن لا يطغى الحس الإقليمي في التكتلات المقترحة على الحس الإسلامي العام ، كما أن من المهم أن نحمي هذه الروابط والاتحادات من المظهرية والشكلية ، وهذا يكون ممكناً إذا كانت إقامة الروابطة بناء على مبادرات شعبية بإشراف حكومي ، أو كانت إقامتها بجهد مشترك حكومي وشعبي .

إن المقصود من وحدة الأمة تحويلها إلى كتلة كبيرة ذات وزن في الساحات الدولية ، وتحقيق أكبر قدر ممكن من التعاون والتكامل والتناصر بين بلدان العالم الإسلامي ، وهذا يتم عن طريق ما أشرنا إليه ، ويمكن للعالم الإسلامي أن يستفيد من تجربة أوروبا في اتحاداتها وتوحيد قواها .

ب – يلاحظ القصور للعديد من الخطابات الإسلامية في مسألة عمل النظم أو بعض النظم في المجال الاقتصادي وعلى سبيل المثال فإن كثيراً من صانعي الخطاب الإسلامي يعولون على الزكاة تعويلاً عظيماً في تحسين الأحوال المعيشية للمسلمين وفي تقليل نسبة الفقراء ، بل إن بعضاً من صانعي الخطاب يعتقدون اعتقاداً جازماً أن أثرياء المسلمين أو مالكي النصاب منهم لو أخرجوا جميعاً زكاة أموالهم لما بقي في المجتمع الإسلامي أي فقير ، ويدعمون وجهة نظهرهم هذه بما ذكره بعض المؤرخين من أن بعض جباة الزكاة في عهد عمر بن عبدالعزيز – رحمه الله – قد قالوا له : قد قاض لدينا بعض المال بعد أن أعطينا كل مستحقي الزكاة ، فأرشدهم عمر إلى أن يشتروا بالفائض عبيداً ويعتقوهم ، ويزيد بعضهم في هذه الدعوى : لو سبق في علم الله – تعالى – أن ٢,٥٪ لا تكفي لسد حاجات الفقراء لجعل النسبة خمسة أو عشرة في المائة ، وهذه النظرة في رأيي غير موضوعية ولا ممحصة للأسباب الآتية :

– لا أعرف بين النصوص والأدلة الشرعية المعتمدة ما يشير إلى أن الزكاة شرعت من أجل القضاء على الفقر ، وتخليص المجتمعات الإسلامية من ويلاته ، إنما شرعت الزكوات والصدقات من أجل تطهير الأموال وتزكية النفوس وتقوية الروابط بين المسلمين ، بالإضافة إلى كونها باباً عظيماً من أبواب كرم الله – تعالى – وتفضله على عباده ، حيث يعوضهم عما ينفقونه في الخير أضعافاً مضاعفة ، إلى جانب تلبيتها لبعض احتياجات الفقراء .

– لم يثبت أبداً أن الفقر اختفى في زمان النبي صلى الله عليه وسلم ، ولا في زمان الخلفاء الراشدين المهديين ، ونحن نتوقع أن يخرج كل الموسرين زكاة أموالهم في هذين العهدين المباركين ، ولم يختف الفقر من أي مجتمع مسلم على امتداد التاريخ ، ويمكن أن نقول نحواً من هذا في جميع مجتمعات الأرض أو معظمها ، أما ما ذكر من استفتاء الناس عن الزكاة في عهد عمر بن عبدالعزيز ، فهذا إن صح يكون قد وقع في قرية صغيرة أو حي من الأحياء ، أما أن يكون عاماً في جميع أرجاء بلاد الإسلام ، فهذا ما لا يقبله عاقل ، لأن مدة ولاية الرجل محدودة ، وهي غير كافية للقضاء على الفقر في دولة أشبة بالإمبراطورية .

– إن العمل الخيري عبارة عن كرة أخرى على صعيد العدالة الاجتماعية وعبارة عن استدراك على قصور النظام الاجتماعي السائد ، ومن ثم فإن العمل الخيري وأموال الزكوات والصدقات تقوم بدور تكميلي لما تقوم به النظم الاقتصادية والاجتماعية المختلفة ، وإن نظام الزكاة لا يحقق أهدافه في التخفيف من آلام الفقراء على نحو جيد وملموس إلا إذا كان أداء النظم الاقتصادية جيداً ، وكان وضع التدين والالتزام ووضع التواصل الاجتماعي مقبولاً ، وهكذا فإن الزكاة جزء من النظام الاقتصادي الإسلامي العام ، ولها صلة قوية بالنظام الاجتماعي ، فالسياسات الراشدة للدول الإسلامية في كبح جماح التضخم وخفض نسبة البطالة وتوفير فرص العمل وجذب الاستثمارات الخارجية ، ذات تأثير كبير في مساعدة الزكاة على أداء دورها في التخفيف من مشكلة الفقر ، كما أن إقبال الناس على الصدقة والإقراض الحسن والوفاء بالنذور ودفع الكفارات إلى جانب الأوقاف الإسلامية والمؤسسات الخيرية واللاربحية ... إن كل ذلك يترك أثره في كفاءة نظام الزكاة ، وانطلاقاً من هذا فإننا ندرك تسطيح العديد من الخطابات الإسلامية لدور الزكاة خاصة والعمل الخيري عامة

في إصلاح الأوضاع المعيشية للناس ، وهذا ناتج من عدم إدراك جيد للعلاقات التي تربط بين النظم الحياتية المختلفة .

ج – عدم معرفة الكثيرين من صانعي الخطاب الإسلامي ومبلغيه بطبائع الأشياء وسنن الله – تعالى – في الخلق جعلهم يخلطون أحياناً بين المطرد والشاذ ، والقاعدة والاستثناء منها ويتجلى هذا واضحاً في أحاديث الوعاظ ، كما ينعكس على تطلعات بعض صانعي الخطاب الإسلامي للمستقبل ، ويتجلى هذا واضحاً في تصوير حال السابقين (السلف) ومقارنتها بحال الأمة اليوم ، حيث يجنح العديد من الخطابات الإسلامية – ولاسيما الخطابات التي يصنعها تبليغيون أو وعاظ – إلى تصوير أوضاع السابقين بأنه كان يغلب عليها الصلاح والتمسك الشديد بالسنة والوقوف الصلب عند حدود الله – تعالى – أما حال المسلمين اليوم في نظرهم فهو بائس جداً ، وأحياناً يصور على أنه الأسوأ في تاريخ الأمة على الإطلاق ، وهم حتى يرسخوا هذه المعاني في نفوس الناس وعقولهم يعمدون إلى استلال بعض النماذج المشرقة والمتفوقة من القرون الأولى ثم يعممونها على تلك القرون ، ويذكرون ذلك – في غالب الأمر – في سياق توبيخ الجيل المعاصر ، وبيان انحرافاته وألوان قصوره في كل مجال من مجالات الحياة ، وعلى صعيد كل فضيلة من الفضائل : العدل ، بر الوالدين ، قيام الليل ، الزهد ، طلب العلم ، الخشوع ، البعد عن الشبهات ، هناك ألوف قليلة من الأسماء تتردد في مقام الاستشهاد على فضل السابقين ، وفي بعض الفضائل – مثل العدل – قد لا تجد من الأسماء المتداولة أكثر من خمسة أو عشرة ، ولا شك أن من يعبر عن شؤونهم بعبارات مثل : هكذا كان السلف ، وهذا ما كان ينفر منه السلف ، وهذا دأب السلف ... لا يشكلون سوى نسبة قليلة من الناس قد لا تصل إلى ١٪ ، والمشكل أن الذين يخاطبون بهذا الكلام هم في الغالب من العامة وأنصاف الخاصة ، وهذا يعني أنه تجري عمليات مقارنة لا شعورية بين خاصة الأمة وعامتهم ، وهذا غير منهجي ، وليس فيه إنصاف للعصور الإسلامية ، لا ريب أن الخير لدى السابقين كان كثيراً ، كما أن أمة الإسلام كانت متفوقة حضارياً على الأمم الأخرى ، لكن هذا لا يمنع من أن نضع النقاط على الحروف ، ونقول إن النماذج المتفوقة جداً ، هي نادرة في كل جيل ، وهي تمثل الاستثناء وليس القاعدة ، وإن كثيراً من الناس يستغربون –

مثلاً – القول بأن الذين كانوا يحفظن القرآن الكريم عن ظهر قلب لم يكن عددهم يصل إلى عشرة من بين مئات الألوف من الصحابة الكرام .

في هذا السياق أيضاً يقوم العديد من صناع الخطاب الإسلامي بقبول بعض الروايات التاريخية التي تدل على أحداث ومواقف وأمور مدهشة بقصد إثبات تفوق السابقين وإقامة الحجة على المتأخرين والمعاصرين ، وهذا ما أراه في ترديد كثير من الوعاظ للرقم الضخم لعدد جيش الروم في غزوة مؤتة ، حيث يذكرون أنه كان زهاء مئة وخمسين ألفاً ، على حين أن عدد المسلمين كان في حدود ثلاثة آلاف ، وهذه الرواية تحتاج إلى تمحيص وتحليل ، إذ إن من غير المألوف حشد مثل هذه الأعداد الهائلة في مواجهة عدد صغير ، حيث لا حاجة تدعو إلى ذلك ، كما أن تنظيم مثل هذا العدد وتوجيهه وتموينه وتسليحه ، ويثقل كاهل أي دولة في القديم والحديث ، ولم نعهد مثل هذا العدد في أي معركة من المعارك الكبرى التي خاضها المسلمون في القرن الأول .

إن نتيجة المبالغة في الثناء على السابقين على نحو مفرط لن تكون سوى عدد من الأمور الرديئة ، منها :

- الخروج عن الموضوعية والمنهجية التي أمرنا باتباعها ، والظهور أمام الخصوم بأننا لا نقيم للنقد العلمي والمنهجي أي قيمة .
- جعل الجيل الحالي ينظر لنفسه باحتقار واستخفاف نتيجة مقارنة العاديين من الناس اليوم بالخاصة من الناس في الماضي .
- إظهار التدين الحق والتقدم العظيم في الخير والفضل وكأنه بعيد المنال ، وخارج طوق الإنسان المسلم ، وهذا يدفع الناس في اتجاه القنوط واليأس من التأسي والاقتداء .

إن في أهل زماننا عشرات الألوف من الرجال والنساء والشباب والشيوخ الذين يقدمون نماذج عالية جداً وبكل المقاييس في الورع والإقبال على الله – تعالى – وفي نصرة الدين والغيرة على الملة والنجاح في الأعمال وتقديم الخدمة العامة ، وإنهم يستحقون الإشادة والإبراز حتى يستيقن الجميع أن الخير باق في هذه الأمة وأن المنهج الرباني الأقوم قادر على العمل بكفاءة في نفوس الناس مهما اختلف الزمان والمكان .

٤. اهتم الخطاب الإسلامي المعاصر اهتماماً واضحاً بالمرأة ، لكنه لم يسلك المسلك الصحيح الذي كان ينبغي أن يسلكه ، وإن كان الأمر في السنوات الأخيرة بدأ يتحسن في بلاد إسلامية كثيرة ، إن الذي يعود إلى ما سطره الكتاب المسلمون في السنوات الأربعين الماضية في شأن المرآة يلفت نظره تركيز ذلك الخطاب على جوانب محدودة من حياة المرآة المسلمة ، وهي تلك المتعلقة بصيانتها وشرفها من نحو مسائل الحجاب والستر والحشمة وشروط اللباس الشرعي وعمل المرآة وشروطه ومسألة اختلاط الرجال بالنساء ، وما شابه ذلك ، ويبدو أن الاهتمام بهذه المسائل كان جزءاً من رد الفعل على الغزو الفكري والثقافي الذي تعرض له العالم الإسلامي مع دخول الاستعمار إلى بلاده ، حيث أخذ مفهوم تحرير المرآة يتجسد في تخليها عن حجابها وحشمتها ، ونحن لا نختلف في أهمية ذلك وحيويته لاستقامة الحياة الإسلامية واستقامة أمر المرآة نفسها ، لكن التركيز على هذه المسائل صاحبه إهمال شبه كامل لمسائل أخرى تعد الأساس والمنطلق لمسألة الستر والحشمة ، وتلك المسائل تتمثل في إعداد المرآة لتأخذ دورها في الحياة بوصفها شقيقة الرجل في إطار خصوصيتها وفي إطار الأحكام والآداب الشرعية الخاصة بها ، إن ٨٠٪ من جهدنا – على الأقل – ينبغي أن ينصرف إلى جعل المرآة المسلمة أما ممتازة وزوجة صالحة وداعية مؤثرة ومشاركة متفوقة في العمل الاجتماعي والتطوعي ، بعبارة أخرى أن يتم التركيز على بناء المرآة وزجها في تيار الحياة العامة ، ونحن في أمس الحاجة إلى هذا لأن التخلف الذي تعاني منه أمة الإسلامي يتطلب منها توفير الفرصة لكل أبنائها وبناتها كي يكدحوا ويعملوا على إغناء الحياة الإسلامية بالأنشطة الخيرة والمفيدة ، هناك قاعدة قيمة تقول : كل شيء إذا همشته خسرته ، ونحن قد همشنا المرآة ، فخسرناها ، وكسبتها الأسواق ، فالمرأة المسلمة – مع شديد الأسف – مشغولة بتكميل شكلها من خلال الملابس والحلي وأدوات الزينة واقتناء الأشياء إلى درجة أنها باتت تنفق على ما ذكرناه أضعاف ما تنفقه المرآة الأوربية ، إن البطالة التي تعاني منها المرآة المسلمة نتيجة إهمالها وضعف إعدادها أورثتها فراغاً في الفكر والروح ، وهي تحاول ملء ذلك الفراغ عن طريق الاستعداد المبالغ فيه للحفلات والمناسبات التي لا تنتهي ، وعن طريق الإسراف في الحديث في الهاتف والجلوس أمام التلفاز وارتياد الأسواق ، إن الحرص على حجاب المرآة هو شيء مطلوب بلا خلاف لكنه لم يكن متصلاً برؤية

شاملة للنهوض بالمرأة وإعدادها للقيام بأمر الله – تعالى – وإنما هو متصل بالنخوة والشهامة والغيرة والعادات والتقاليد ، على ما كان سائداً في الريف الإسلامي على نحو خاص ، حيث تكون المرآة محجبة ومحتشمة لكنها جاهلة في أمور دينها ، وربما كانت مقصرة في أداء أهم شعائره – الصلاة – وربما كانت تذهب إلى السحرة ، وتنطق بعبارات شركية كثيرة ، وتنطوي عقليتها على كثير من الخرافات ، نحن نريد لحجاب المرآة المسلمة ولابتعادها عن مخالطة الرجال أن يكونا صدى لإيمانها العميق بالله – تعالى – وخوفها منه ، وجزءاً من التزامها بتعاليم الإسلام الحنيف .

إن أمة الإسلام تحتاج حاجة ماسة إلى نماذج ناحجة وغنية في مسألة إعداد المرآة ومسألة ممارستها لدورها في الحياة العامة ، لأن هذا سيمكن المسلمين من كسر حاجز الخوف والتوجس من صيرورة المرآة إلى التفلت والانحلال ، إن هذه الوضعية لن تدوم ، وإذا لم يبدع أهل الخير والغيرة والرؤية الإسلامية الناضجة أساليب جديدة للنهوض بالمرأة فلا يلوموا غيرهم إذا فعل ذلك على هواه بعيداً عن الهدى الرباني الأقوم .

في ختام هذا البحث اود أن أدعو إلى تشكيل هيئة إسلامية عالمية تأخذ على عاتقها تنظيم مؤتمرات وندوات وورش عمل ، تهتم بتطوير الخطاب الإسلامي ومراجعته ومتابعة المستجدات التي يمكن أن يقتبسها صانع الخطاب الإسلامي ، ويستفيد منها .

والله ولي التوفيق

أ.د.عبد الكريم محمد بكار

الرياض في ١٤٢٨/١٠/١١

فاكس ٠١٤٨٢٠١٣٣

جوال ٠٥٠٤٧٤٨٩٢٦